نساء رنا بشارة

روز شوملي مصلح

تنتابني حالة من الخشوع، وأنا أتمعن في نساء رنا بشارة. هناك هالة قدسية تحيط بهؤلاء النساء ونور يشعّ من وجوه يملؤها الحزن. الأبيض والأسود يعيدنا إلى الأصول، إلى الجوهر دون ألوان. الأسود للثوب في الحياة، والأبيض للكفن بعد الموت. لكل صورة قصتها، صامتة صارخة، تنبض بالحياة والأمل.

اللوحات بالأبيض والأسود، جهة للعتمة وجهة للنور. والنور ينبع بقوة ليضيء ما حوله. ليضيء ذلك الوجه الذي أعتمه الحزن، هذا نور داخلي، يمنح الصبر لنساء ما زلن يؤمن بالأمل والحب وفجر جديد.

امرأة تصلي، تتضرع، فاتحة كفيها، وعيناها مغمضتان، كأنما هي علاقة الروح بالروح. هل هي صلاة لابنها المعتقل، أم أنها تستحضر وجه ابنها الذي استشهد في مواجهة مع المحتل. إنها تتعبد، مثل شجرة حور تنسى ما حولها حين تتوحد مع الريح. اليدان وحدهما لوحة، وخطوط اليدين تظهر وتختفي كما لو أن اليدين ورقتا شجرة الحور.

نساء رنا بشارة يضحين بأنفسهن من أجل الوطن، ومن أجل أن يحمين أطفالهن من الأذى. ما أصعب أن يموت طفل بين يدي أمه بشظية طائشة. ماذا نقول لأم تحتضن طفلها الشهيد. لا شيء يفي اللحظة.

نساء رنا بشارة صامدات أمام دبابات الاحتلال الاسرائيلي، رافعات الأيدي بإشارة النصر، فخورات بزيهن الذي تشتمُّ منه عبق السنين التي تحملك إلى أرض كنعان.. إلى رموز الخصب والزمن السعيد. المرأة التي تتصدى لحديد الدبابة التي تزرع الرعب في القلوب هي ملح هذي الأرض ورمز عنفوانها.

نساء رنا بشارة يحملن الحجارة سلاحاً في وجه المعتدي. لهن صلابة الحجر وقدرته على التحمل. فالحجارة هي رمز فلسطين التي تفخر بجبالها، وتشمخ بنسائها الصامدات في وجه جبروت المحتل.

رنا بشارة تكتب تاريخ النضال الفلسطيني من خلال توثيق أسماء الشهداء الذين أثرت دماؤهم ثرى الوطن. تكتبهم شواهد على نضال شعب ناضل ولم يزل، وتضعهم على شاطئ البحر الذي طالما حلموا به، وطالما حمّلوه أحلامهم، كأنما تريد أن تقول، كنا هنا، وإن كنا هناك. كما تستعير من حبل الغسيل حكاية المكان، حكاية الكنعانية التي سكنت شاطئ البحر ولم تعط فرصة لتناول ثوبها عن حبل الغسيل، فقد كانت قوى الطغيان أقوى. حبل الغسيل هو شهادة على الوجود الفلسطيني الذي كان يمتد على شاطئ البحر وإن هُجّر منه سكانه. حبل الغسيل يصرخ «كنا هنا وإن غيبتمونا فنحن هنا وإن كنا هناك».

العلم وإشارات النصر، والألم في وجه المرأة ذات الوجه الحزين ترسم صورة الاحتفاء بالشهيد. آه ايتها الأم التي فقدت فلذة كبدها، ما أعظمك! البياض يليق بالشهداء، فهم الملائكة الأرضيون الذين يستحقون الخلود. ما أعظمك أيتها المرأة التي رفعت شارة النصر احتفاء بولدها الشهيد.

نساء رنا بشارة، هن نساء حقيقيات، من لحم ودم، تحملن الفقدان والغياب، والاعتقال، وقضى منهن شهيدات على درب الحرية والنضال. فتحن الأبواب الموصدة، وجعلن من منازلهن مكاناً عاماً للنضال.